مدرج الكولوسيوم

المتعة في مواجهة الموت!

لطالما كانت الأساطير التاريخية ذات وقع خاص على عاطفة الإنسان. فكيف إذا ارتبطت الأسطورة بمكان صامد لأكثر من ألفي سنة مخلفة وراءها أحجاراً تكاد تنطق. رواية حكايات عما مرّ عليها من غزاة صنعوا التاريخ. تقول الأسطورة «مادام الكولوسيوم حيّاً ستبقى روما حيّة، وحين تسقط روما سيسقط العالم بأسره».

تقول الأسطورة: مادام الكولوسيوم قائماً ستبقى روما قائمة وحين تسقط روما سيسقط العالم بأسره. شيد هذا المبنى الضخم على شكل مدرج ومسرح نصف دائري في وسط العاصمة الايطالية منذ ألفي سنة كأكبر شاهد على عظمة العالم القديم والإمبراطورية الرومانية.

الكولوسيوم أو مدرج فلافيان، وهو بيضاوي الشكل ويقع في وسط مدينة روما، إيطاليا، وهو أكبر مبنى في الإمبراطورية الرومانية. فهو يعتبر واحداً من أعظم أعمال الهندسة المعمارية الرومانية والهندسة الرومانية .

شيد هذا المبنى الضخم على شكل مدرج ومسرح نصف دائري في وسط العاصمة الايطالية منذ ألفي سنة كأكبر شاهد على عظمة العالم القديم والإمبراطورية الرومانية. حين تتجول هذه الأيام في أروقة الكولوسيوم تحس وكأن الأحجار تتكلم وتخاطبك الآثار بما مر عليها من غزاة صنعوا التاريخ. ورأيت البعض يقرأ في ساعة الغروب كتاب مرغريت يورسينار «مذكرات الإمبراطور أدريانو» الذي انتصر على الملكة زنوبيا في تدمر بسورية، وتذكرت موسيقى «صنوبر روما» للموسيقار رسبيغي تصور جحافل جيوش الرومان تتقدم في الشرق والغرب لتقيم أضخم إمبراطورية في الزمن القديم

وربما كان مارش النصر من أوبرا (عايدة) لفردي أنسب قطعة نستمع إليها تحت قوس قسطنطين المجاور. يعتبر الكولوسيوم تحفة هندسية لفن العمارة بمحيط دائرة تصل إلى 52 متراً واستعمل فيه الحجر الجيري، وهو مؤلف من أربعة طوابق يحمل الطابق الأول أعمدة من النوع الدوري (وهو أبسط وأقدم نوع من الأعمدة في الهندسة المعمارية الإغريقية) ويليه طابق تحمله أعمدة من النوع الأيوني (نسبة إلىأأيونيا اليونانية) ثم ترى الطابق الثالث تحمله أعمدة من النوع الكورنثي (نسبة إلى كورنث في اليونان التي اشتهرت قديماً بالترف والتهتك وتزدان تيجان الأعمدة بزخارف تشبه أوراق الأشجار) وله ثمانون مدخلاً مثل ملاعب المدن الرياضية الحديثة أما داخله فينقسم إلى ثلاثة أقسام: ، المسرح المدور أو مكان التنافس، والمنصة العالية، ومقاعد المتفرجين.

وتنقسم حسب طبقاتهم من الأشراف وأعضاء مجلس الشيوخ وبقية أفراد الشعب.

وقد انتبه الرومان منذ ذلك الوقت إلى ضرورة السيطرة على مواطنيهم بتوفير الخبز وتسليتهم بالرياضة. وقد أقيم المدرج بالقرب من دار الإمبراطور نيرون الذي أحرق روما كتعويض لأهلها عن الضيم الذي لحق بهم بعد مصادرة نيرون لأرضهم وسمي الكولوسيوم نسبة إلى تمثال نيرون البرونزي الضخم في شكل اله الشمس وارتفاعه 38 متراً، والذي كان منتصباً بالقرب من المدرج في أول شارع النصر (أو المنصة الإمبراطورية الآن) بعد أن جره 12 فيلاً لإقامته في ذلك الموقع وبني بالقرب منه قوس قسطنطين عام 315 بعد الميلاد تكريما لنصر الإمبراطور الذي بني القسطنطينية والذي قلده الفرنسيون في قوس النصر بباريس. وتم تحطيم التمثال في القرن السادس بأمر من البابا غريغوري الكبير حين تنصرت روما ورداً على اضطهاد المسيحيين ثم إجبارهم على مصارعة الأسود.

بدأ إنشاء الكولوسيوم عام 72 بعد الميلاد تحت حكم الإمبراطور فيسباسيان وتم الانتهاء منه بشكل أساسي سنة 80 في عهد تيتوس، ولكن تمت بعض التغييرات الإضافية في عهد دوميتيان.

دشنه الإمبراطور تيتوس الذي هدم المعبد في القدس بعد 8 سنوات من البناء فأقيمت فيه الألعاب الرياضية لمدة مائة يوم قتل خلالها خمسة آلاف حيوان مفترس ونصب البحارة خياماً وأشرعة على

سقفه لحجب ضياء الشمس القوية عن المتفرجين أما الآن فيتوافد عليه السياح من كافة بقاع الأرض ويقضون ساعات طويلة من دون غطاء يحميهم من أشعة الشمس الحارقة، خلال موجة الحر الشديد لكن ذلك لم يمنع البعض من إقامة حفلات الزواج والتقاط الصور التذكارية في بهو المدرج، أو مكان صراع العبيد أو الأسرى أو المارقين مع الوحوش الضارية.

ومنذ تاريخ البدء في البناء وحتى الوقت الحاضر مر المبنى بالعديد من التطورات من حيث الاستعمال وأيضاً شكل المبنى معمارياً فقد كان يعتقد أن الساحة كانت مغطاة بقبة سماوية كبيرة. ويعد المبنى أشهر مثال للمسارح الرومانية على هذه الشاكلة والتي تتميز بكونها كاملة الاستدارة أو بيضاوية تماماً. وظل المبنى مستخدماً لمده تقرب من 500 عام وسجلت أخر ألعاب أقيمت فيه في القرن السادس، بعد التاريخ التقليدي الذي يعتقد سقوط روما فيه وهو عام 476. كان طول محيطه يبلغ 527 متراً، وارتفاعه 50 متراً، واستعمل فيه الحجر الجيري، وكان يتسع لخمسين ألفاً من المتفرجين، الذين كانوا يقصدونه لمشاهدة أكثر العروض إثارة، كالمصارعة، ومطاردة الحيوانات المفترسة، بل وبعض المعارك البحرية. وأمكنه الصمود أمام غزوات البربر المتتابعة.

بعد تحطم جزء من الكولوسيوم إثر هزة أرضية عنيفة في القرون الوسطى استخدم أمراء عصر النهضة قسماً من حجارة المدرج لبناء قصورهم العامرة مثل باباريني الذي تحول إلى متحف الان وفرنيزي الذي استولى عليه نابليون ليصبح مقر السفارة الفرنسية.

أقيمت في السنوات الأخيرة عدة حفلات موسيقية لأشهر الفنانين العالميين في باحة المدرج مثل بول ماكارتني من فريق البيتلز، لكن أنصار البيئة احتجوا على إفساد أهم الآثار التاريخية من قبل الجمهور فخفت تلك الحفلات أخيراً ولا شك أن قضاء لحظات شاعرية في باحة الكولوسيوم تحت ضوء القمر المكتمل في الليالي الصافية، هي أروع دقائق للعودة في الزمان إلى ألفي سنة وكأنك تعيش الأسطورة بكل أبعادها التاريخية.

ويتمتع المدرج الروماني الشهير في روما (الكولوسيوم) بمكانة خاصة لدى الإيطاليين وهو الموقع الأثري الأكثر استقطاباً للسائحين الأجانب أيضاً، وقال نائب وزير الثقافة الإيطالي فرانشيسكو جيرو أن مبيعات تذاكر المواقع الأثرية في روما «بلغت 41 مليون يورو وهي تشكّل نصف عائدات المواقع الأثرية في كل إيطاليا والمقدرة بـ 97 مليوناً، علماً أن عائدات زيارة الكولوسيوم والميدان الروماني والمواقع الأثرية المحيطة به تدر وحدها ريعاً يزيد على 30 مليون يورو» وأضاف: «تُبيّن هذه النتائج أن ثلث السائحين تقريباً أي ثمانية ملايين سائح من أصل 33 مليوناً من المترددين على المتاحف والمعالم التراثية في إيطاليا يزورون روما ويحرص خمسة ملايين منهم على دخول الكولوسيوم ما يجعله الموقع الأثري الأكثر استقطاباً للزوار في إيطاليا».

الكولوسيوم من الداخل